عبد العزيز عسيري

باتجاه الجنوب

مجموعة قصصية



عبد العزيز الغني عسيري ، ١٤٢٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

عسيري ، عبد العزيز عبد الغني

باتجاه الجنوب / عبد العزيز عبد الغني عسيري الطائف ـ ١٤٢٦ هـ

٣٦ص ؛ ٢٠سم

ردمك: ٩-٠٦٢-٤٩-٩٩٦٠

١. القصص القصيرة العربية ـ السعودية أ. العنوان

ديوي ٨١٢،١٩٥٣١   ١٤٢٦/٣٧٩٥

رقم الإيداع : ١٤٢٦/٣٧٩٥

ردمك : ٩ ـ ٠٦٢ ـ ٤٩ ـ ٩٩٦٠

عبد العزيز عسيري

باتجاه الجنوب

مجموعة قصصية



عبد العزيز عسيري

باتجاه الجنوب

مجموعة قصصية

لوحة الغلاف للفنان التشكيلي أيمن يسري

عنوان المؤلف / المملكة العربية السعودية ـ الطائف
ص.ب : 1202
Email : althalj2011@hotmail.com



ص.ب. 113/5752
E-mail: arabdiffiusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت ـ لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

ISBN 978-614-404-413-1

الطبعة الأولى يناير 2006 / الطبعة الثانية 2013

المحتويات

إهداء

إلى المبدع المسرحي دومًا

فهد ردة الحارثي.

شكر خاص

إلى الأستاذ / محمد عابد بكّر (أبو سلطان) على محافظته على هذه المجموعة من الضياع.

وجه أمي

باب الريع.. المسيال.. غدير البنات.. علي ناجي.. شارع البريد.. شاورما عبد الرؤوف.. دار التوحيد.. أبو شده.. زقاق الخميس.. فرقّنا.. المجرور.. بنت الجيران.. مسجد العباس.. ماء الورد.. طارق عبد الحكيم.. برحة القزاز.. ملعب التربية.. حدائق نجمة.. حارة بقيلي.. المثناة.. زنيقط.. الحماط.. سينما أبو الروس.. القيس.. قهوة الغربي.. الليري.. أسماؤنا المكتوبة على الجدران.. عبد الله المرشدي «يا قماري بالله قولوا له».. النغاري.. الحبابة.. البرشومي.. توحه.. الرمان.. يابليله.. الزحليقة.. نادي عكاظ.. عبد الله محمد «سليم سليم».. حلقة الحطب.. الركبان.. السويك.. السليمانية.. السيد.. نداءات عم عبده بائع اليغمش.. المدوان.. المطر..(*).

كل هذه الأشياء تتقاطع مع ملامح أمي.. احتضانها لي زادني وجعًا.. كنت أخشى لحظة لقائها.. أهرب منها.. أغتربُ.. وأغتربُ.. وأغتربُ.. ماذا أقول لها.. تعبتُ.. سامحيني.. حاولت أن أعود.. ماذا أقول

(*) أسماء و أماكن و ألعاب شعبية من مدينة الطائف.

لها؟.. انسلت المفردات.. الصور.. الأصوات.. الإيماءات من ذاكرتي فتأرجحتُ في الفراغ.. صرخت.. تحولت الآه إلى فراشة بيضاء يهدهدها الفضاء شيّعتها بفراشة أخرى، وأخرى.. وأخرى، وأخرى، تسلطت عليّ الارتعاشات.. أجهدتُ نفسي لاستحضار أدعية حفظتها قديمًا.. تمتمتُ بأشلائها.. استرخيتُ على الكرسي.. بدأتُ أتأمل محتويات الغرفة..جذبتني صور أفراد عائلتي المعلقة فلم أجد صورتي.. أين ذهبت؟!!.. الإطار لا يحوي إلا الفراغ.. هل هاجرت هي أيضًا؟.. أم أنها نفرت من رؤيتي.. أم أن الفراغ آخذٌ في احتوائي؟.. تأملتُ الصور مرارًا.. ينتابني إحساس أن بها شيئًا ما.. فأعيد الكرة.. أزدادُ شغفًا بها.. أعاود التمتمة.. أطبقتُ فمي خوفًا من أن تنفر منه فراشة.. ها هي صورتي تتداخل أجزاؤها مع كل الصور.. حاولت أن أُلملمها.. استعصت.. قاومتها.. قبضت عليها.. وضعتها في الإطار فرحًا.. بدأت تنوح..تذبل.. تموت.. صعدتُ بسرعة إلى أعلى المنزل لعلي أشاهد ملامحي.. لم أجد سوى نجوم فقدت بعض ملامحها.. تمددتُ على الأرض أعدُّ ما تبقى من نجوم.. غفوت.... تملكني النوم.. مسني الندى.. صعدت أمي في الصباح بحثًا عني.. وجدت وعاءً طينيًا مليئًا بالزهور والفراشات..

عيال عبد القوي

«الله أكبر... يا عيال عبد القوي تفرقتم» هكذا ودعت ابنتها منيرة التي حملت ما استطاعت من أطفالها على يديها... بينما تعلق البقية بعباءتها السوداء سائرين خلفها..رأسها المضغوط بحقيبة الملابس المنتفخة يذرف عرقًا وشى بتجاعيد وجهها وشفتيها الضامرتين... أطفالها المتعثرة خطاهم في المنعطفات المعتمة لسلم العمارة لا يكفون عن البكاء... هبطت بهم الدرج سريعًا... أقسم زوجها أن يطلقها ويتركها مع جرائها الصغيرة ما لم تذهب معه... فقد وجد وظيفة في قرية نائية..

❀ ❀ ❀

كلما طوت السنديانة سجادة الصلاة رددت «الله أكبر... ياعيال عبد القوي تفرقتم» تدخل غرفة «مهنا» تشم غترته وثوبه المعلقين على مسمار خلف الباب.. تستلقي على فراشه... تحلم أن يعود يومًا فيوقظها لينام مكانه... مضت أسابيع على اختفائه نسج خلالها أهل الحارة حكايات عديدة... نسوة من الحارة أكدن هروبه مع فتاة من حارة مجاورة بعد انتفاخ بطنها امتنعن عن ذكر اسمها

لأن الله يحب الستر.. أحد أكثر رجالات الحارة وقارًا أقسم أن من يثق بهم قالوا إنهم شاهدوا «مهنا» في المدينة المجاورة يقود سيارة فارهة برفقة فنان مشهور... نسج الحكايات لاينتهي والسنديانة صامتة منذ قال لها أنه لم يعد يطيق أن تنفق عليه امرأة...

❀ ❀ ❀

«الله أكبر.. يا عيال عبد القوي تفرقتم» فرحته بولادة طفله الأول تبددت... لم يعد ما يتقاضاه من أجر يومي يفي باحتياجات عائلته... اضطر للعمل ساعات إضافية بأجر زهيد.. قام بأعمال أخرى كان يأنف من أدائها... أصبح مستعدًا للقيام بأي شيء... انقطع عن أصدقائه وجيرانه... لامته زوجته على تجاهله أمه مدة طويلة... اتصل بها قائلًا: «يا أمي الجوع كافر» وذاب في الحياة.

❀ ❀ ❀

يقفز صاخبًا في أرجاء المنزل... يعبث بمحتوياته... فاردًا ذراعيه الصغيرتين مقلدًا صوت طائرة.. فزعت.. ارتبكت.. قطعت صلاتها.. أسرعت إلى النوافذ والأبواب أقفلتها بإحكام... صرخت متوسلة «يا الله... إنه آخر الأبناء»...

انتحار

ـ نوره، بيضاء البشرة نحيلة القوام.

ـ رائع، وماذا أيضًا.

ـ عيناها عسليتان.

ـ أفضل العيون السود.

ـ العسلية أكثر جاذبية.

ـ لا بأس.

ـ شعرها أسود.

ـ آه لو كان أشقر.

ـ هذه خلقة ربنا.. يا ولدي.

ـ ما رأيكِ في حصة؟

ـ إنها لا تحسن اختيار ألوان ملابسها.

ـ سوف تتعلم.

ـ نظراتها تزعجني.. أفضل عليها هيفاء.

ـ ما شكل أصابعها؟

يستمر استعراض بنات الحي.. يحتد النقاش بينهما بين موافق ومعارض.

.. هو.. قابع في ركن الغرفة.. يراقبهما.. صامتًا.. ملقى كقطعة بالية.. لا يحس بحرارته سوى الكرسي الجالس عليه.. لقد ارتبطا بعلاقة حميمة.. إنه ملاذه.. الشيء الوحيد الذي يفهمه.. الذي يقدر مشاعره..

همس للكرسي «لم يتبق إلا أن أصلب ويجوب بي مناديًا: لله يا محسنين عروس لهذا الفتى» لن أسمح لهما.. أخي يرى زوجته دميمة فهو يبحث عن فتاة أحلامه ليزوجني بها، أمي تريد تحسين نسل العائلة.. لن أكون سلعة.. وداعًا سوق النخاسة.

خرج من المنزل.. ومازال العرض مستمرًا.. طرق أول باب خرجت له امرأة عجوز قال لها: تتزوجينني؟.

صرير

البارحة أرسل إلى إدارة السجن استرحامًا منوهًا أن القيد أصبح أسيره فلم يستبدل منذ دخوله السجن، ويرغب في منحه قيدًا جديدًا بمناسبة عيد ميلاده، جاءه الرد مصحوبًا بأمطار بلعومية من الحارس.

أشعل عود ثقاب احتفالًا بعيد ميلاده ثم وضعه بعد انطفائه بجوار أعواد السنوات الماضية.

- إبراهيم

- نعم

حشروه في السيارة بين اثنين بينما قام الثالث بوضع قيد في قدميه، واخترقت السيارة شارع الحي القديم وصوت الحلواني يكبحه الغبار:

- يا أستاذ، تعال الكعكة بخمسين، طيب بأربعين...

مجريات حياته تهشم الزمن وتنفر من ذاكرته لتعبر أمامه في لحظة واحدة، فبعد سنوات من تعيينه مدرسًا دخل على المدير وقد استشاط غضبًا قائلًا :

- اذكروا محاسن موتاكم.

ـ خير يا أستاذ. قالها المدير بصوت باهت الملامح.

ـ لن أدرس منهج هذا العام.

ـ هل من غلط؟

ـ أهناك شيء صح؟، إنهم أبناء الوطن وليسوا غرباء.

ـ يا أستاذ، طبيعة المرحلة الراهنة وآفاق المستقبل، حتمت صوغ المنهج الجديد.

ـ لن أكذب.

ـ لا داعي للإساءة.

بعد عدة شهور من تقديمه الاستقالة كتب التلاميذ على جدار المدرسة المليء برسوم وعبارات الحب والجنس «يعيش مدرس التاريخ ويسقط المدير».

أبي.. أيها الباب الكبير

بعد أن لعب مع أترابه انتعل حذاءه الجديد الذي اشتراه والده بالأمس من دكان العم خليل المنزوي في أعتق خانات السوق القديمة، التقط حقيبته ونفض ما علق عليها من تراب.. أعاد شماغه كما كان عليه في الصباح المحقون بالبرد عند مغادرته البيت مشفوعًا بقبلات ودموع أمه.. ثم أوى إلى الظل المتسرب من أشجار المدرسة.. أسند ظهره إلى الجدار الشاهق.. وقف مذعورًا من لدغة حجر قذفه به طفل.. عاد إلى مكانه مبتلعًا ألمه خوفًا من أن يهدي إليه حجرًا آخر أو يجتمع عليه بقية من أطفال فيعتدون عليه، بل قد يمزقون جزءًا من ثوبه الذي حاكته أخته بعد تخرجها من مدرسة الخياطة، أو قد يسرقون مسطرته الزاهية بالرسوم أو يغتصبون الحلوى التي أعطاها إياها المدرس بعد أن استطاع أن يقرأ «ألفٌ باءٌ.. يعني أبي هو في قلبي أغلى أب».. عادت إليه الطمأنينة المصادرة عندما شاهد بواب المدرسة المكتنز بسبعين عامًا من الحياة المشهور بعصاه الغليظة.. أطبق البواب بالقفل على الباب الكبير المشتعل صدأً إعلانًا بخلو المدرسة والشارع من الطلاب وعندما هم بالذهاب ألقى نظرة استغراب ورحل... ظل يتسلى بأكل الحلوى تارة وبالنظر إلى البيوت بنوافذها الخشبية تارة

أخرى وباللعب بالتراب.. إذ به يسمع أذان العصر وأبوه لم يأت ليأخذه إلى البيت... لابد أن أباه تأخر لأنه وعد العم خليل أن ينقده قيمة الحذاء ظهر اليوم.. لا لا ليس الحذاء بل السرير الخشبي الذي كان تحت الدرج الذي أحضره أبي ليلًا عندما كنت نائمًا.. لابد أن أبي ذهب لإعادته ممن اشتراه فهو سرير قبيح وقديم ولن ترضى أمي به.. لكن أبي متى سيأخذني فأنا جائع «أبي.. أبي..أبي»... بدأ صوته يخفت عندما بدأ يغتاله البكاء، وشهوة العبث في الشارع أهمدها الجوع والخوف..

صوت المؤذن يرتفع مرة أخرى، الصلاة على الميت يرحمكم الله.

ورقة توت

لماذا قالها بتلك النبرة؟! هاه، لماذا قالها أصلًا؟ أتذكر أني ابتسمت فصفعني وصفعني ثم ركلني ثم قالها !

لا لا لم يركلني وإلا انشق ثوبه فكل الوقائع المادية تثبت أنه لم يلعب كرة قدم قط، حقيقة أشك أنه ركلني رغم أن مؤخرتي تؤلمني، لكن الصفع ثابت.. إني أخلط الأمور يجب أن أرتب الوقائع حسب حدوثها زمنيًا حتى أستطيع أن أصل لماذا قالها بتلك النبرة؟.

يوجد لدي صفعٌ وركلٌ وهل فعلًا حدثا؟.. قد يكون قالها أولًا ثم صفعني ثم ركلني.. لا الركل أولًا ولكن كيف وقد ثبت لدي بالأدلة المادية الدامغة وشهادة الشهود أنه لم يركلني، حقًا إنه أمر محير.

عفوًا أي شهود، لم يكن معنا أحد.. أتذكر أن الوقت كان ليلًا والسماء ملبدة بالغيوم.. قف.. ما علاقة الليل والسماء بالشهود، لم يكن معنا أحد أُقسم بالله لم يكن معنا أحد.. إذًا ثبت لدي بإقرار المدعي أنه لم يكن معهما أحد وعليه حكمت.. ما هذا الخلط كنت أتحدث عن ترتيب الأحداث، بل كنت أتساءل لماذا قالها بتلك النبرة؟ لابد من سبب.

عفوًا عفوًا سأبدأ من جديد.. عندما صفعني.. هل حقًا فعل ذلك فالأورام التي على وجهي لا توحي بفعل ذلك، كما أن الطقس كان باردًا وهو مصاب بالروماتيزم.. آه إني أنشد الحقيقة بما أن الشك يفسر لمصلحته فهو لم يصفعني، إذًا نعود لماذا قالها؟ نعم لقد قالها بتلك النبرة وإلا لماذا أقف هنا والوقت ما يزال ليلًا وقدماي غارقتان في ماء المطر.. إن بقيت هنا سوف أصاب بالزكام فالأفضل أن أحتمي بالضوء المنبعث من عمود الإنارة.. ولكن لماذا قالها بتلك النبرة؟!!

طفل اسمه يحيى

(1)

ولولت الأم وتعالى صوتها.. هرولت نساء القرية لاستقصاء الخبر.. انطلق طفل ليخبر الأب أن زوجته أحالت الحارة بركانًا من الضوضاء.. ازدحم البيت المبني من الطين بالأجساد ولم يستطع الأب الوصول إلى زوجته إلا زحفًا بين الأقدام.. عندما اقترب غرس وجهه في عيني طفله فأغشي عليه.

بصوت شاحب قالت الأم: «عيناه العسليتان صارتا خضراوين».

حدجها الأب بنظرة ريبة متسائلًا «هذا ابني؟».

تراجعت الأم وانكمشت قائلةً: «إنه يحيى، ابنك».

اقترب الأب سائلًا طفله «أمريض أنت؟».

قال يحيى: «أنا بخير يا أبي».

قال الأب: «هل عيناك تؤلمانك؟».

نظر يحيى إلى بقايا المرآة المشنوقة على مسمار صدئ، ضحك ببراءة أطفال القرى المنسية ثم قال: «لقد أعطانا المعلم زيتونًا أخضر مما تنبته مزرعته فأكله التلاميذ أما أنا فشطرت الزيتونة شطرين وثبتهما مكان عيني».

(2)

سأل الأستاذ «من منكم يحفظ حروف الهجاء؟».

وقف أحد الطلبة بسرعة قائلًا: «أنا.. أنا يا أستاذ.أ.ب. ت. ث».

قاطعه يحيى: بصوت عال «أنا.. أنا.. أنا يا أستاذ»

نهره الأستاذ وطلب منه أن يحضر ولي أمره في الغد.

قال يحيى «لم أفعل خطأ..إنه لا يحفظ حروف الهجاء فمنذ أن أصبحت عيني زيتونيتين صارت حروف الهجاء فقط..ف.. ل .. س.. ط.. ي.. ن».

(3)

تمدد على السرير لا يستره سوى سروال قصير.. بدأ الطبيب بالكشف عليه وكلما حاول النهوض منعه والداه..

حاول الطبيب تهدئته فقدم له الحلوى.. قبض عليها صارت حجرًا.. في اليوم التالي صدر قرار بمنع استيراد الحلوى ومنع أي شخص من حيازتها بدون تصريح وإلا عوقب بالحبس.

بكى يحيى فتساقطت من عينيه الحلوى.. قبض عليها.. تحولت حجارة.. خرج إلى الشارع وبدأ يبكي والأطفال يتلقفون الحلوى ويقذفون بالحجارة الجنود الذين يبادلونهم الرصاص.

فضاء

لم أستطع إدراك دمعتي.. رأسي كان يلامس صدرها الحاني ويداها تلملمان ما تبقى لي من وجود.. حاولت أن أرجع صوتي من منافي الصمت.. أعيد رسم تقاسيم وجهي، لعل اللحظة الراهنة تعيرني ذاكرة لا أخجل منها.

جاء صوتي مثقوبًا يتبدى من خلاله الحزن والكآبة: أرجوك إقفلي الباب كم أكره الباب الموارب.

تحركت بهدوء صوب الباب.. قطعت المسافة كسحابة وديعة تعبر الحقول، طاوعها الباب عائدًا إلى سيرته الأولى.. انتشى المكان بعبق السكينة.. أخذت تداعب خصلات من شعري. تحرك صوتي: الباب الموارب يشعرني بأن هناك من يراقبني.. يتلصص عليّ.

يتلصص علي فأندفع إلى تزييف تصرفاتي والإتيان بأمور لا أرغب فيها، فأفقد حريتي.

انساب صوتها: آسفة، رغبت في تجديد هواء الغرفة، النوافذ مقفلة منذ أيام.

صوتي المثقوب عاد مرة أخرى: الباب الموارب.. مراوغ.. يستوطن التأرجح.. لا أمان له.. أشعر دومًا بأن

خلفه المجهول يتربص بي، لذا أحب الأماكن المكشوفة، تشعرني بالوضوح فالأمان.

رسمت ابتسامتها على شفتي قائلة : هل أعيد فتح النوافذ؟

النور الخافت المتدلي من المصباح ألقى بظلالها عليّ . . تمازجت ملامحنا . . شعرت بالدفء والطمأنينة .

قلت لها : لم أعد بحاجة إلى الفضاءات المفتوحة، أنتِ أكثر رحابة.

الالتصاق

عصفور ملقى على قارعة الطريق.. يلهبه الظمأ، يتحرق شوقًا إلى قفص يؤويه.. عند مروري ارتعش.. انقض على قدمي.. ركلته حتى لا يوقظها فتسري الحياة فيها.. لكنه التصق بي.. نزعت جسدي عضوًا عضوًا.. ومازال ملتصقًا بي.. صرخت.. أرتطم به صوتي فعاد تغريدًا.. ضحكت وضحكت ثم أكملت الضحك فهيئته تثيرني حتى اعتقدت أنه بلا سيقان ومع ذلك مازال ملتصقًا بي.. حام حولي فوقفت مسلوبًا، أخذ يصفق بجناحيه فانبعثت منهما زوبعة أخذت ترجمني بحجارة سوداء.. هممت بالهرب.. انجدع أنفي.. حينئذ أيقنت الهلاك.. فجأة هويتُ على الأرض نازفًا طينًا أسود.. إذ بأعضائي تنشطر.. تتدفق منها عصافير بيضاء.. التفت حولي.. حملتني فارتفعت وارتفعت.. رأيت المدينة صدئة.. تنز قيحًا تتلحف عفونة.. أشحت وجهي فأشرق الضباب.. نزلتُ في سحابة فاغتسلت وعندما هبطت كانت العصافير تحيط بي مرددة نغمًا كانت تنشده أمي عندما آوي إلى حضنها.

الذواق

طحينية.. زيتون.. دبيازه.. عيش.. شوكولاته.. أصوات متداخلة.. الكل يطلب الأنواع كافة بأوزان مختلفة.. الكل يريد أن يحمل أكبر قدر من الأكياس.. كانت مباراة في الشراء وإظهار الأوراق النقدية الملونة.. العمال يتحركون في أرجاء المحل كافة..

كان ينظر إلى الآخرين عندما يشترون فيحفظ اسم النوع ليقوله للعامل بلهجة تنم عن خبرته في هذه الأنواع.

لم يتمالك نفسه فانجرف مع الآخرين.. لم يكتف بإصدار الأوامر إلى العامل عند شراء أي نوع، بل أخذته النشوة ليكتفي بالإشارة.. لم يجد العامل بدًا من أن يستفسر منه عن الكمية التي يرغب في شرائها.. يكتفي بهز رأسه عند أي وزن يذكره العامل.. يمد العامل له بقطعة من كل نوع فيقضم طرفها ليشعر الآخرين أنه ذواق.. ازدحام الناس يشعره بالزهو لأنه من مرتادي المحل.. تكدست الأكياس وشعر بالحرج لأنه لم يأخذ عربة تسوق كالآخرين.. أومأ إلى أحد العمال بمساعدته على حملها.. وقف عند المحاسب يداعبه ببعض الكلمات الرقيقة ليشعر الآخرين أنهما صديقان.. خرج من المحل يتبعه العامل

بالمشتريات.. أعطاه مبلغًا جيدًا وربّت كتفه.. ركب سيارته.. توجه إلى منزله.. فتح باب الشقة.. وضع الأكياس في الصالة.. دخل غرفة النوم.. تمدد على السرير.. تخيل أن له زوجة وأطفالًا..

باتجاه الجنوب

صوت المؤذن يلامس السماء.. يتمسح بها.. فيعود صوتًا قدسيًا يغسل الفجر.. سبابة أبي نخلة لا تمل التسبيح.. صوته المعجون بالأذكار يربّت أذني، فأستلذ الغفو.. أنهضني.. وقفت ممسكًا بطرف ثوبه عند الباب الجنوبي للمنزل.. رفع خنجره.. عيناي مأخوذتان به.. أشبه بهلال مئذنة.. هبط كشهاب راصد.. الدماء تنفر ملطخة ثوبي.. يضحك أبي.. يمسح خنجره على رقبة البعير.. أغسل عتبة المنزل التي لم نطأها إلا أمس.. يذكرُ الذاهبين إلى الصلاة بدعوته لهم إلى الغداء.. ينظر إلى مكان قصي في السماء قائلًا : «من الجنوب يأتي الخير.. يأتي الغيث والضيوف».. أهز رأسي متمتمًا قوله.. سنوات مضت.. بابنا الجنوبي لا يلتئم.. كبرتُ وكبر أبي.. أقوده إلى بساطه عند عتبة الباب.. أسكب له القهوة.. يسألني عن المارة.. يطلب أن أنظر باتجاه الجنوب.. فأردد عليه «من الجنوب يأتي الخير.. يأتي الغيث والضيوف»...

رباب

درب القرية الموسوم بخطى أطفال حفاة لا يملون اللعب، عند الشروق يستحيل خصلة ذهبية تغار منها نساءُ وصبايا القرية فيكدن في الليل ليخرج الرجالُ بدوابهم متحالفين مع الريح مخضبين الصبح بالغبار، فينكفىء الدرب لحينِ عودةِ رجالٍ يقاسمهم التعب ملامحهم.

عند المساء يمد الدربُ ناصيته إلى البيوت الطينية الصغيرة المتقلدة أبوابًا ونوافذًا خشبية قاتمة الألوان شتاءً، محايدة خريفًا، مبهجة ربيعًا وصيفًا.. يصيخ السمع إلى حكايات مملة ترددها النساء ممهورةً بالمكيدة والنميمة تصاحبها حركات رؤوسٍ رجال بليدة.. ونكات بذيئة يخبئها الفتيان عن الآخرين.. وتأوهات صبايا يعزفن على جدائلهن لوعة انتظار لن يطول.

عندما يغفو القمر يتوسد الدرب الليل غازلًا من العتمة نجمةً يعلقها قنديلًا على نافذةِ فتاةٍ خمرية وهبته ذات مساء ابتسامتها الحزينة فلم يعد قادرًا على مغادرة القرية.

ما تبقى من حكايات ردة

الحكاية الأولى

كان «ردة» يملك سيارة أجرة لنقل الركاب بين الطائف ومكة تتسع لسبعة ركاب.. صوته العذب يستمتع به الحاضرون في موقف مكة وهو ينادي بأعلى صوته «واحد نفر جنب السواق» ثم يغني بما يخطر على باله مما يحفظه من دانات أو كسرات.. استمر «ردة» في نقل الركاب والعودة إلى الطائف في المساء مدعيًا أنه يوقظ الشمس كل صباح..

في أحد الصباحات أخبروه أن أسعار المواد الاستهلاكية ارتفعت.. حاول أصدقاؤه إقناعه بنقل الركاب إلى جدة لزيادة دخله فرفض اقتراحهم.. اتهموه بالكسل والخمول.. عنادًا لهم قرر نقل الركاب إلى جدة لكنه لم يستطع العودة في المساء إلى الطائف.. اليوم التالي استيقظت الشمس متأخرة...

الحكاية الثانية

شوارع حارة «ردة» الضيقة والملتوية لا تلمس أرضها الشمس إلا إذا كانت عمودية.. كان «ردة» يفرش بساطه عند باب منزله في الضحى وبجواره إبريق الشاي ليجتمع ما تبقى من رجال وشباب الحارة عنده.. يفتح لهم قلبه الكبير فيستمعون إلى نشرات أخبار الحارة اليومية وبعض أغاني صباح وطارق عبد الحكيم وطلال.. عندما تمل زوجته التجمعات تضغط على زر دينمو الماء فيضطرب إرسال قلبه..كان أهل الحارة يحملون رده إلى شارع آخر ليكملوا الاستماع.. مع مرور الأيام لم تعد زوجة ردة بحاجة إلى هذه الحيلة فقد أحاطت بالحارة عمائر شاهقة قطعت إرساله اليومي.

الحكاية الثالثة

«ردة» أشهر من رقص بالمقمع في جبال الحجاز.. قيل أنه كان في الليالي المعتمة يصعد جبل قرنيت أو الحبلة مصوبًا بندقيته على أي نجم بدأ يفقد لمعانه فيصيبه.. فيزداد توهجًا.. فلم تعرف سماء الطائف نجمًا باهتًا.. فجأة تخلى عن بندقيته وحمل بدلًا منها طارًا.. يغني على إيقاعه المجرور.. قيل إن سبب ما حدث أنه في إحدى الليالي صعد أحد الجبال وأخذ يتأمل ما حولهِ.. تساءل لماذا مدينته منصوبة على الجبال.. طرأ على باله أن يرفع يده إلى أعلى.. ففعل.. لمست أطراف أصابعه شيئًا باردًا.. اقشعر بدنه.. أصابه شيء من الخوف.. نظر إلى أعلى.. امتلأت عيناه بالعتمة.. مد يده مرة أخرى بحذر.. لمس شيئًا باردًا.. تحسسه.. كان مصقولًا.. شهيًا.. مسالمًا.. حنونًا.. لا متناهيًا.. كانت السماء.. احتضن أصابعه.. رأى شجرًا أخضر ينبت ليحرس المدينة.. هبط من الجبل.. وجد الشمس سبقته إلى باب المدينة.. دخل السوق فباع بندقيته واشترى طارًا.. شعر أن الله يحب مدينته لذا جعلها قريبة من السماء...

الباب الشرقي

الشمس تتدحرج على جسده الملقى عند باب المدينة الشرقي منذ أعوام.. صوت حارس الأمكنة منقوش في أذنيه «ارموه في رحم الصحراء، إن تطهر انفلق له الباب الشرقي».

حمله بضعة عبيد على محفة.. شقوا به الصحراء دون توقف.. دليلهم صوت حارس الأمكنة «رحم الصحراء مدفن آخركم»..

الشمس تغير جلدها كل صباح.. كلما طعنوا في الصحراء استفاقت فيهم غريزة الحياة.. بعد عدة مراحل أهالوا الرمل على أولهم.. مضى زمن.. أهال الرمل على آخرهم.. قبع في مكانه.. غمر جسمه بالرمل ثلاثة أيام.. توجه صوب المدينة ترشده خطى العبيد المطبوعة على الصحراء.. كلما طاف حول سور المدينة ليدخل نبذته أبوابها عند الباب الشرقي الموصود.

أخذ صوته ينضب.. فقأ عينيه.. انهمر منهما رملٌ كثيف أحاط بالمدينة.. بطمأنينة قال: «أيتها المدينة الفاجرة.. تطهري أولًا».

الكاوبوي

وطئ بجثته الحمراء الضخمة قرية صغيرة لم يتبق منها إلا نساء وأطفال وعجزة.. جدران المنازل المتهالكة تتساقط حجارتها من دوي صرخاته غير المفهومة.. الأغنام الهزيلة لم تستطع الفرار من طلقات مدفعه الرشاش فتطايرت أشلاؤها.. قدماه الغليظتان سحقتا الفراشات فطبعت ألوانها الجميلة على نعلي حذائه.. خلع نظارته السوداء فصعق من صفاء أشعة الشمس.. أطلق عليها رصاصاته معكرًا الفضاء.. وضع نظارته تاركًا للرصاص يعبث بأي شيء في طريقه..

عاد صوت قائده يداعب ذاكرته «سيرجنت ناثان روس أنت الوطن»(*).. عوى..

اتجه صوب المنازل.. هربت النساء والأطفال.. اقترب أكثر.. أنين.. ثم أكثر.. أنين.. توجه إلى غرفة مهترئة.. ركل بابها الشاحب فهوى.. أنين.. غرس فوهة مدفعه في تجاعيد العجوز.. سكت الأنين.. عوى..

(*) ناثان روس أول جندي أمريكي يقتل في أفغانستان.

سقطت النظارة السوداء بجوار الجثة الحمراء الضخمة. . عيناه الجاحظتان ابتلعتا طفلًا قرضه الهزال يحمل بندقية عتيقة.

الشجرة

يتكئ على عصا مصنوعةٍ من شجرة. . الشجرةُ العتيقة الرابضة بالقرب من المنزل المحبوس داخل فناء مبني من الطين المجلوب من المزرعة.. المزرعة الواقعة بالقرية النائية عن العاصمة.. العاصمة المحتضنة بالصحراء الممتدة حتى الجبال المعانقة للسحاب.. السحاب المهاجر من شاطئ البحر.. البحر الرازح تحت وطأة المراكب.. المراكبُ المصنوعةُ من شجرة. . الشجرة التي زرعها إنسان.. إنسان قتله إنسان يتكئ على عصا مصنوعة من شجرة.

الشاب يحيى

«حصة اليوم اختبار» قالها أستاذ الرسم.

احتج الطلبة بأنهم غير مستعدين وأدواتهم ناقصة.

قال الأستاذ بحزم «أنتم: في المرحلة الثانوية.. كفوا عن لعب الأطفال.. أخرجوا أي ورقة وارسموا بأي قلم.. لا تهمني الألوان، المهم المهارة».

أذعن الطلبة للوضع..

قال الأستاذ: ارسموا أي منظر واقعي من حياتنا اليومية..

بدأ الطلبة برسم المدرسة.. بائع البسبوسة.. الأمهات.. رسوم شتى.. المدرس ينتقل من طالب إلى آخر..

وقف عند يحيى.. كان قلم الرصاص يتحرك بحزن.. الورقة يقطر منها الدم على أرض الفصل.. كانت خريطة فلسطين..

العودة

عندما رآني جفل مني.. ارتعش.. أقسم ألا يعود.. ابتسمت.. ازداد رهقًا.. انحنى.. جثى.. حاول الانتصاب فطمره البكاء.. ربّتُ نشيجه.. لم يهدأ. ابتسمت.. تهاوى.. احتضن الأرض.. أدرت وجهي بكيتُ وبكيت ساقني حزني صوب الحزن أقسمت ألا أعود.

جدل 1

«تحية لمهدي جريبي»

غمس الفرشاة في رماد الروح.. عصفت بها ذاكرته على القماش الأبيض.. اكتست اللوحة بلون بشرته المحايد.. أفاق على أخته عائشة تشده من قميصه.. أجلسها على فخذه.. مدت يدها بحلوى وضعتها في فمه.. عض برفق أناملها الصغيرة.. ندت منها ضحكة خجلة ذكرتهُ بضحكة جدته وهي تطعمه من رغيف الخبز الأسمر المحشو تمرًا في محاولة إقناعه أنها حلوى من الجنة لا يملكها الأطفال الآخرون.. تزداد روعة ضحكة جدته عندما يطلب منها أن تحضر له في المرة القادمة حلوى من الجنة ولكن ملونة..

جدل 2

«تحية لمهدي جريبي»

لبس معطفه.. قبض على حواسه.. حمل سطلًا مليئًا بالألوان.. أغلق باب المرسم.. أزاح الليل من طريقه.. انزوى في أحد منعطفات الشارع ينتظرها.. البيوت الصغيرة حبست أنفاسها تواطؤًا معه.. العصافير سربت شقشقتها لتغريها بالظهور.. وجوه الأطفال المائلة إلى السمرة التي تركوها لديه أخرجها من معطفه.. نثرها في الفضاء.. اندفعت الشمس من مخبئها.. قذفها بالألوان لوجوه أكثر بهجة..

قلب

مددت يدي إلى قلبي.. فانخلع معي.. مهلهلًا.. خاويًا.. باردًا.. تنبعث منه رائحة كريهة.. ألقيته جانبًا.. واصلت سيري أكثر بهجة ونشاطًا...

دانيه

استيقظ الليل على رهافة روحها.. مضى يتتبع هسهسة أنفاسها.. نفذ إلى غرفة نومها.. وجدها محاطة بملائكة يحرسونها.. سمحوا له بالاقتراب..

في الصباح.. فتحت حقيبتها المدرسية.. كان واجبها المدرسي محلولًا.. فرحت كثيرًا.. نظرت في المرآة.. وجدت على خدها شامة سوداء جميلة.. منذ ذلك الحين صار الناس بلا ليل...

الاستواء

وحيدًا... كان في عليائه مستوحشًا... تلعقه الظلمة... جاس بين منازل طوت ساكنيها وخبأت فجائعهم لصباح آخر... خالط عيون المنغمسين في ظلالهم لعلهم يبرؤون من وهد الليل... جمع العتمة من مساربها فأعلاها... انكفأ على وجهه أمدًا... لم يشعر به أحد... أنزل العتمة... نفاها... غمط المتلألئات نورها... عاود الاعتلاء... استوى كما كان بدرًا مقفرًا...

الظل

جاهرتْ بغلوها فألقتني ظلًا أعوج... تمادتْ فجعلت للأشياء ظلالًا... أدحرج ظلي كل يوم... أهامسه... ألاطفه... أجهد لأنسنته... أغويه بالانفصال عن قدمي... كلما أفلحت في المساء... نبت لي ظل في النهار.

الأدمة

كلما ركضتُ زادت الأرض اتساعًا... أخذتُ قبضة من طين... أطلقتُ صرخة تشظت لها الروح.. هتفتُ «يا أرض منتهاك قبضة»... آخيتُ الريح والرمل فجعلا لي قبرًا من نسيان... أخرجت الأرض من جرابها جماجم وفتات عظام... وأهدتني حشرجة الموت قائلة: «أنت مني».



باتجاه الجنوب



تم إهداء أول نسخة من هذه المجموعة للأديب الباسق : فائز أبا تقدي

ISBN 614-404-413-1
9 786144 044131

رقم الإيداع : 1426/3795
ردمـــك : 9 - 062 - 49 - 9960